حزيران بلا قتال

نظمي الجعبة*

مقتطفات من يوميات فتى مقدسي**

لم تنتهِ سنة ١٩٦٦ إلاّ وكان بيتنا الجديد قد تحضّر لاستقبالنا بعد مغادرتنا البلدة القديمة في القدس حيث ولدت وترعرعت وعرفت تفصيلاتها وأزقتها وناسها. البيت الجديد يبعد أقل من مئة متر إلى الجنوب من أسوار القدس الجنوبية، في حي وادي حلوة الأخضر الذي تمتد فيه البساتين ويتصل بالنبع الوحيد في المدينة، والحي جزء من قرية سلوان الوديعة التي ترقد في ظل أسوار القدس، ملتصقة بها. وكان البيت الجديد بمثابة صعود طبقي لعائلتي، إذ توفرت فيه كل ما كنا نفتقده في البيت القديم: كهرباء، ومياه جارية، ومرحاض خاص بنا، وحديقة صغيرة، والخصوصية التي يفتقدها الحوش الكبير الذي كنا نسكنه، وحتى "دوش"، فأنا لم أتخيل في حياتي أنه يمكن الاستحمام خارج "الطشت" إلى أن انتقلنا إلى البيت الجديد.

في حي المغاربة

بعد انتقالنا، انضمت مناطق جديدة إلى مساري اليومي، مع محافظة الحرم الشريف على مكانته المرموقة والرفيعة في نفسي وفي جدولي اليومي، لأن الوصول إلى مدرستي العمرية، الواقعة فوق الجدار الشمالي للحرم الشريف، عبر باب المغاربة (باب المدينة)، يتطلب اجتياز جزء من حارة المغاربة، وخصوصاً أمام بيوت آل أبو السعود، ودخول الحرم الشريف من باب المغاربة (باب الحرم)، كما أن العودة من المدرسة إلى البيت كانت تتطلب الذهاب إلى دكان والدي في طريق باب السلسلة لإثبات الوجود قبل أي شيء، وهو شرط تشدد الوالد في تطبيقه، ولمعرفة ما إذا كان هناك سلة من المواد الغذائية في انتظاري، ثم العودة عن طريق باب السلسلة إلى عقبة أبو مدين الغوث، واختراق حارة المغاربة من الشمال إلى الجنوب، ثم الهبوط عبر وادي حلوة إلى البيت الجديد.

وبهذا دخلت حارة المغاربة في تجاربي اليومية واكتشافاتي الصغيرة. ولفت نظري بشدة

---

* أستاذ التاريخ في جامعة بير زيت.

** هذه مقتطفات من يوميات للكاتب غير منشورة، ولا ندري إن كان سينشرها أم لا، لكنه بسبب مرور خمسة عقود على احتلال مدينته، قرر نشر هذا الجزء الذي ربما يفيد في إنعاش ذاكرة آخرين، فيدوّنون مذكراتهم قبل أن تتلاشى الذاكرة.

اللباس المغربي بألوانه المتنوعة بشكلَيه الصيفي والشتوي، وأجمل ما فيه تلك الطاقية المتدلية على الكتف، أو على الظهر. كما شدّني الطربوش المغربي الذي يختلف عن طرابيش الأفندية على الطريقة العثمانية، والذي كان منتشراً في قدس ستينيات القرن العشرين، فهو لين ولا يرتفع كثيراً، ولا يساهم في تضخيم لابسه. كما أن ملابس المرأة المغربية كانت غريبة بعض الشيء بالنسبة إليّ، إذ تشكل اللباس أساساً من جلابية، وهو أمر غير مألوف بالنسبة إلى النساء المقدسيات اللواتي كنّ يلبسن إمّا اللباس الإفرنجي الجديد، وإمّا اللباس المحلي الأسود لنساء بلاد الشام.

ودخلت إلى قاموسي أيضاً، عبارات ومصطلحات مغربية، وأصبحت أذني معتادة على اللهجة المغربية التي لم أفهم بعض تعابيرها، ولا سيما لهجة الزوار والمجاورين المغاربة، مع أنني شعرت بأن بعض تلك اللهجات أقرب إلى لهجتنا، غير أنني لاحظت أن لكنتهم مختلفة بعض الشيء، وأن سرعة نطقهم لا تتماشى والأذن المقدسية البطيئة المعتادة على مد الكلمة، وأنهم يقرضون بعض أحرف الكلمات، الأمر الذي يتطلب تركيزاً إضافياً لفهم الجمل والمقصود بها، ولهذا لم أستطع فهم كل شيء، فاقتصرت على المغزى. لكنني تعلمت التعرف إلى المغاربة من خلال ملامحهم أيضاً.

ولا أستطيع نسيان شجرة التين الضخمة التي كانت ترتفع من خلف الجدران العالية لحديقة دار المصلوحي الكائنة على درج عقبة أبو مدين الغوث، وكنت أنتظر ثمارها في مطلع أيلول/سبتمبر من كل عام، فأراقب الثمار وهي تنمو، وأُعلّم بعضها كي أقتنصها حين تنضج وتحين الفرصة لذلك. وتعرفت أيضاً إلى كثير من الأولاد في الحارة، ولم يكن مشهداً غير مألوف أن أضع حقيبتي المدرسية أو سلة الخضار على قارعة الطريق لأنهمك في لعبة كرة قدم في أزقة الحارة. وكنا نتابع الكرة أحياناً إلى داخل ساحات البيوت الداخلية، غير مكتفين بالطرقات والساحات العامة، فتنهال علينا الشتائم واللعنات، باللهجة المغربية.

وكان سكان زاوية أبو مدين الغوث (زاوية المغاربة) وباقي الحارة التي لم تقتصر على المغاربة فقط، يتشكلون من صنفين: المغاربة الدائمين، أي ممّن أصبحوا بفعل تقادمهم سكاناً دائمين في القدس "تمقدسوا"، أو المغاربة المجاورين لفترات محدودة قد تطول، والذين يزداد عددهم في شهر رمضان، وكذلك بعد موسم الحج. وأصبحت أميّز بين الصنفين بالملبس وطريقة السير، وطبعاً باللهجة. أمّا باقي سكان الحارة فكانوا على الأغلب من المغاربة الذين حضروا إلى القدس قبل أجيال كثيرة وتبلّدوا (أصبحوا من أبناء البلد)، لكن كان يضاف إليهم كل عام أعداد قليلة من المجاورين الذين قرروا عدم العودة إلى موطنهم الأصلي والبقاء في جوار المسجد الأقصى. كما ازدادت معرفتي بالمطبخ المغربي، فلم تعد كلمة "كسكس" غريبة بعد أن فُسرت لي بأنها "الكسكسون" أو "المفتول" تقريباً، مع حفظ الفوارق، لأن المغاربة كانوا يصرون على تمييز كسكسهم من سواه، وأصبح أنفي يميز رائحة البهارات الشديدة التي تنبعث من مطابخ الحارة.

وهكذا صارت تفصيلات حارة المغاربة جزءاً من عالمي الصغير، فقد شدني جداً الآخر (المغربي) الذي يسكن هناك، وكنت تواقاً إلى معرفة مزيد عنه. وفي الحقيقة فإنني لا أستطيع الآن تفسير صداقاتي التي تشكلت بسرعة البرق في حارة المغاربة، إلاّ من باب تلك المحاولات الاستكشافية التي كانت تلاحقني في أزقة القدس العتيقة كافة.

تعدّت معرفتي بالحارة عبر الطريق العام المتفرع من طريق باب السلسلة نزولاً عبر عقبة أبو مدين الغوث، والمتجه جنوباً بشكل ملتف بين البيوت، والذي ينخفض بالتدريج عبر كثير من الأدراج، إذ إن حارة المغاربة هي أكثر حارات المدينة القديمة انخفاضاً، ثم يلتقي هذا الطريق بطريق فرعي آخر يصعد في اتجاه الشرق، ويقود بين بيوت آل أبو سعود (زاوية أبو السعود وملحقاتها) إلى الحرم

الشريف، كما يتفرع عن هذا الطريق زقاق يقود إلى حائط البراق. لقد اكتشفت أزقة الحارة، وأتخيلها الآن أصغر وأضيق أزقة البلدة القديمة على الإطلاق، فقد انعدمت فيها تقريباً الطرق المستقيمة، وسيطرت الطرق الملتوية والشديدة الالتفاف على شبكة الطرق في الحارة. ولم تكن بيوت حارة المغاربة أجمل مباني البلدة القديمة، كما أن ارتفاعاتها كانت أقل نسبياً من ارتفاعات مثيلاتها في الحارات الأُخرى. وأذكر الآن تعدد الحدائق الصغيرة في أحواشها وكثرة أشجار التين والرمّان مقارنة بباقي أجزاء البلدة القديمة، وهكذا خلال أقل من عام أصبحت حارة المغاربة مرتعاً من مراتع الطفولة.

"الجيش العراقي" يهدم حارة المغاربة ويرقص على أطلالها!!

لم تطل استكشافاتي في حارة المغاربة كثيراً، فهي لم تتعدّ العام أو أقل قليلاً، وكان بودي لو تعرفت إلى مزيد منها، وخصوصاً الفتحات الكثيرة في الجدران الشمالية للحارة، والتي تقود إلى المجهول الذي يستفزني، كما أن علاقاتي مع صبية الحارة كانت في بواكيرها، وإن كنت لا أزال أذكر ملامح بعض الوجوه التي لم أعد أراها.

بعد يومين من اندلاع حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، وبسبب وجود معسكر للجيش الأردني على السفح الشرقي لجبل النبي داود، والذي لا يبعد أكثر من ١٠٠ متر هوائي عن بيتنا الجديد، ولأن المعسكر كان يتبادل القذائف المدفعية مع الجيش الإسرائيلي، وشهد بعض الغارات الجوية، قرر والدي الاحتماء في البلدة القديمة في بيت جدي الذي كان يقع في حارة الشرف. لم نحمل معنا كثيراً من متاع الدنيا، فقد تم الأمر على عجل، وكان والدي على يقين بأن غيابه عن إنجاز عمره لن يطول، لكنه اعتقد بأن البلدة القديمة بأسوارها وحرمتها قد تقينا الأسوأ، وأن الابتعاد عن المعسكر سيجنّبنا المخاطر المحتملة.

الغرفة اليتيمة التي كان يقطنها جدي، والواقعة في حارة الشرف الملاصقة لحارة المغاربة من الجهة الغربية، اكتظت بنا بمصطبتها الداخلية التي تعلو ثلاث درجات عن المستوى الأدنى للغرفة، مثل بيوت الفلاحين، وترتفع عنها بعلو عدة طبقات، لكن ساحة الدار الضخمة ومستوياتها المتعددة، استوعبتنا جميعاً في أثناء النهار، لننحشر كلنا في الغرفة في أثناء الليل.

تشكلت تلقائياً ثلاث حلقات من سكان الدار الكبيرة وضيوفها الكثر: الأولى من الرجال والأطفال اليافعين الذين تحلقوا حول المذياع لمعرفة آخر "انتصارات" الجيوش العربية وأين وصلت في عملية "تحرير فلسطين"، كما أنهم كانوا يتابعون الوضع العسكري الميداني عن كثب من فوق سطح الدار المطلة على الشرق، حيث يظهر جبل الزيتون ومجمع الجامعة العبرية، وكان يمكنهم مراقبة الاشتباكات التي كانت تتم بين الجيشين الأردني والإسرائيلي على جبل المكبّر الواقع على بعد أكثر من ستة كيلومترات جنوبي البلدة القديمة. الحلقة الثانية تشكلت من النساء والبنات، وقد اتصفت هذه الحلقة بكثرة الصلوات والأدعية وقراءة القرآن الكريم والتسبيح، وتخللها، طبعاً، تحضير كثير من الشاي والقهوة لمرات لا تُحصى خلال اليوم، والقيام بإعداد الطعام لهذا الكم الكبير من الأفواه التي لا شغل لها سوى الأكل والشرب. أمّا الحلقة الثالثة، فتشكلت من الأطفال الكثر الذين لم ينضموا إلى أي من الحلقتين السابقتين، واعتبروا ما يدور احتفالاً كرنفالياً يطيب خلاله اللعب والقفز والصراخ ومتابعة الكبار بحركاتهم البهلوانية عندما كانوا يهرعون إلى سطح الدار الكبيرة لمراقبة حدث ما كلما تبادر إلى السمع صوت انفجار أو هدير طائرة حربية، أو ترامى إلى مسامعهم من البنايات

المجاورة خبر عاجل، أو تقرير مفصل ومؤكد وموثوق به بشأن ما يدور، وبشأن تطورات المعارك على مختلف الجبهات.

بيت جدي، الذي لا يبعد كثيراً عن بيتنا السابق في البلدة القديمة، والذي يقع في مبنى ضخم كان أساساً نزلاً كبيراً يعود إلى فترة الفرنجة (القرن الثاني عشر للميلاد)، طبعاً هذا ما علِمْته بعد أربعين عاماً من هذه الأحداث، وبسبب كبره، وبما أضيف إليه في القرون اللاحقة من غرف، كانت تقطنه مجموعة كبيرة من العائلات إحداها عائلة جدي الذي احتل وجدتي غرفة في الطبقة الأرضية من المبنى. ولم يكن للغرفة مطبخ، وإنما جرى اقتطاع زاوية منها وتحويلها إلى مطبخ، في حين تشارك جدي وعائلات أُخرى المرحاض. والبيت من طبقتين، وفوق جزء من المبنى هناك طبقة ثالثة يسكنها أقرباء لنا، ويبدو أن بعض العائلات لسبب أو لآخر التجأ إلى هذه الدار مثلنا، فتحولت الدار إلى شكل من أشكال مخيمات اللاجئين.

وكانت عائلتي المشكلة من ١٣ فرداً قد زادت بسبب زواج أخي الأكبر وانضمام زوجته إلى العائلة، لكن شقيقي الأصغر منه سناً كان قد غادرنا للدراسة في دمشق، لكننا لم نستطع المحافظة على رقم ١٣ السحري، بسبب زواج شقيقتي الكبرى وانتقالها إلى السكن في شرق الأردن. وقد جرت الحرب وشقيقي الثاني ما زال في دمشق، الأمر الذي سبّب قلقاً غير عادي لدى كل أفراد العائلة بشأن مصيره، ولم يتبدد إلاّ بعدما وصل إلى القدس بعد أسبوعين من انتهاء الحرب، عبر عمّان ثم سيراً على الأقدام.

كثيرة هي القصص التي يمكن أن تروى عمّا دار في تلك الدار خلال الأيام القليلة التي قضيناها فيها، لكن المجال هنا لا يتسع لروايتها. وفي خضم النقاش الصاخب الذي كان يدور في حلقة الرجال المحللين للأوضاع والخبراء في الشؤون العسكرية والاستراتيجية، أعلن "برج المراقبة" من فوق أعلى نقطة على سطح الدار وصول "الدبابات العراقية" إلى جبل الزيتون، وبدء سيرها في اتجاه البلدة القديمة، فأطلقت حلقة النساء زخات من وابل الزغاريد، تلاها التصفيق الذي استمر دقائق بسبب عدم انصياع الأطفال لأوامر الكبار بالكفّ عن ذلك، وهمّ الرجال باستلال أسلحتهم القليلة والبدائية المتحفزة للمشاركة في هذا العرس الوطني الذي كثيراً ما انتظروه، أو تحضروا للانقضاض على الشطر الغربي من المدينة، وبدأت الخطط والأولويات تُرسم، علماً بأن أياً منهم لم يكن قد تدرب على استعمال السلاح، إلاّ إن النخوة والحماسة كانتا سيدتَي الموقف. وتحضّر بعض سكان الدار أو زوارها، لم أعد أذكر، للعودة إلى بيوتهم في القدس الغربية، والتي شُردوا منها في سنة ١٩٤٨، لكن حكمة جدي الأكبر عمراً بين الحضور وتجربته الحياتية انتصرتا، فقد أمر الجميع بالتروي، ريثما ينقشع غبار المعركة، وبعدها لكل مقام مقال، ولن يضيع حق وراءه مطالب. ولم تمض سويعات قليلة على مشاهدة "الدبابات العراقية" على جبل الزيتون، حتى سمعنا جلبة كبيرة في الطريق العام أمام الدار، فانشرح صدر جدي وابتهج وعلت على وجهه ملامح الانتصار الذي لا ريب فيه، وقرر مصادرة إبريق الشاي الضخم الذي كان قد حُضّر لنزلاء الدار، وخرج به إلى الطريق لتقديمه إلى "الجيش العراقي" المنهك بسبب طول الطريق من بغداد إلى القدس، وهو بالتأكيد بحاجة إلى كأس من الشاي الذي هو مشروب العراق المفضل، وإن كان الشاي معتقاً فسيرحب به العراقيون أكثر، لأن "شايهم أثقل من شاينا."

لم يغب جدي سوى ثوان معدودات، حتى ارتد إلى داخل الدار، وسمعنا باب الدار الحديدي الضخم يرتد وراءه بعنف وصخب مطلقاً صدى هائلاً بين أروقة الدار، وسقط الإبريق وفناجين الشاي من بين يدَي جدي مطلقاً كلمة واحدة فقط هي "هود"، وهي في لهجة جدي تعني "يهود"، وسقط مغشياً عليه. وهنا فهمنا أن البلدة القديمة سقطت بيد الاحتلال الإسرائيلي، وأن "العراقيين" ودباباتهم هم "يهود". ودبّ في الدار الكبيرة هرج وبكاء وعويل لا تزال تطنّ في أذني حتى اليوم، وذلك بعد مرور خمسة

عقود على سقوط إبريق الشاي الضخم من يدي جدي، لكني سأعفيكم وأعفي نفسي من بقية ذكريات الهزيمة ووقعها في النفوس التي كانت متأكدة من النصر المبين.

سيطر القلق الشديد على والدي. كيف سيتحمل مسؤولية هذا العدد الكبير من العائلة، وكيف سيتصرف في ظل الأوضاع الجديدة، وخصوصاً بعد سماع مكبرات الصوت باللكنة العبرية معلنة منع التجوال وتسليم الأسلحة أو إلقاءها في الشوارع؟ وازداد قلقاً على بيته الجديد في وادي حلوة، وهل من الممكن العودة إلى البيت؟ فضاقت به الدنيا، وتحوّل لون وجهه الوردي إلى لون أقرب إلى الزرقة، واختفت بسمته الدائمة.

ولحظة إعلان رفع منع التجوال الأول، ولمدة ساعة فقط للتزود بالمواد الغذائية، اندفع والدي يجمعنا من أرجاء الدار، كراعٍ يجمع قطيعه المنتشر، معلناً الرحيل إلى بيتنا في وادي حلوة (سلوان) خارج الأسوار، وسط احتجاج الجميع وعدم تصديقهم للقرار الطائش وغير المسؤول الذي اتخذه والدي. لقد انتاب والدي الخوف الشديد على بيته الجديد الذي لم يهنأ به بعد، كما أنه صمم معلناً أنه لن يموت إلاّ في بيته، وأنه لن يرحل ولن يصبح لا هو ولا أي من أبنائه لاجئاً في أي مكان.

خرجنا من الدار بسرعة وخوف شديدين إلى المجهول، واتجهنا بخطى بطيئة ثقيلة وغير واثقة شمالاً إلى طريق باب السلسلة، ونزلنا الدرجات التي عبرناها آلاف المرات في الماضي، والتي يعرفها جميع أفراد عائلتي بالتفصيل، حتى إننا نستطيع السير عليها ونحن مغمضو العيون. ولم نشاهد أي شيء يدعو إلى الاستغراب أو الريبة، ولم نشاهد أي جندي ولا دمار على الرغم من سماعنا انفجارات وأصوات جرافات في أثناء وجودنا في بيت جدي. وكان على الطريق بعض من الناس، يهرولون بهدوء ومن دون أي كلام، لكن الغضب والقلق بادياً على محياهم. كان بعضهم يحمل حقائب ثقيلة، وبعضهم الآخر يجر صبية، أو حتى يحمل عجوزاً طاعنة بالسن ولا تقوى على السير، لكن كل شيء يمكن اعتباره في مثل تلك الظروف عادياً.

لدى وصولنا إلى طريق باب السلسلة انعطفنا يميناً (إلى الشرق) وسرنا ٥٠ متراً تقريباً، ثم انعطفنا يميناً مرة أُخرى (إلى الجنوب) لندخل عقبة أبو مدين حيث سرنا في الزقاق بضعة أمتار قبل نزول الدرجات الأولى، وما إن وصلنا إلى زاوية أبو مدين الغوث، وأصبح وجهنا في اتجاه الشرق، حتى انفتح أمام أنظارنا مشهد مرعب يفوق كل تصور. مباشرة تحت الدرجات تراكمت أعداد هائلة من الجنود المدججين بالسلاح حتى أخمص أقدامهم، يرقصون ويغنون على أنغام الموسيقى بلغة غير مفهومة، وخلفهم لم يعد لحارة المغاربة وجود، فقد اختفت التينة والرمانة، واختفت الأزقة التي كنت ألعب بينها، واختفت الممرات التي اعتدت استعمالها؛ اختفى محمد، وسعيد، وسي يوسف، واختفى المصلوحي وتينته... كل شيء بات ركاماً يتصاعد منه غبار الدمار تحت أشعة شمس حزيران/يونيو الحارقة، والجرافات التي لم أشاهدها في حياتي من قبل، ما زالت تهدر بجنازيرها الحديدية على أنغام موسيقى الانتصار، وتكمل مهمة لم تنتهِ بعد. وكان هناك كذلك مجموعة من الحاخامات الأشكيناز الذين كنت أشاهدهم لأول مرة في حياتي أيضاً، بردائهم الأسود وقبعاتهم الغريبة، وكانوا يرقصون فوق الدمار، وفوق ذكرياتي، وفوق بيوت أصدقائي، وفوق ممرات كثيراً ما سرت عليها. وبرز حائط البراق لأول مرة ضخماً أمامي، وأنا لم أعتد هذا المنظر من قبل، إذ كان الجدار صغيراً وغير مرتفع ويقع في زقاق ضيق، ولم يكن ممكناً مشاهدته إلاّ بدخول زقاق وباب. فجأة احتل الجدار المشهد كله، وأصبحت قبة الصخرة والمسجد الأقصى مرئيَّين من هذه النقطة، بينما كانا في الماضي محجوبَين عن الأنظار بسبب الأبنية المكتظة في حارة المغاربة.

لا أستطيع القول إن أياً من الاثني عشر السائرين على أنقاض حارة المغاربة قد استوعب أي شيء

من هذا المشهد الجديد، ولا أعرف حتى الآن كيف لم يُغشَ علينا، ويبدو أن الجميع تحضّر للأسوأ. فخلال ثوان، التفّ حولنا عدد من الجنود شاهرين أسلحتهم، ومطلقين زخات من الكلمات غير المفهومة، لكننا فهمنا منها أن علينا التوقف. مرّر أحدهم نظره علينا بشكل مدقق ومتأنّ ومتعال، وكان الغبار قد غطى ملامح وجهه وغيّر لونه، بحيث لا يمكن تبيّن ملامحه الأصلية، ووقع اختياره على شقيقي الأكبر (رقم ١)، الذي كان في منتصف العقد الثالث من عمره، وجرّه من بيننا، وعصب عينيه بعصابة، وأمرنا باستكمال المسير. سرنا جميعاً من دون شقيقي في اتجاه باب المغاربة، تاركين وراءنا حارة محطمة، وجنوداً يرقصون، وجداراً مهيمناً ومتسلطناً، وحاخامات يهزون رؤوسهم في اتجاه الجدار، وجرافات تلتهم ما تبقّى من الحارة، وشقيقاً معتقلاً بيد الجنود لا نعرف ماذا سيكون مصيره. حملنا معنا الذل والمهانة والدموع والهزيمة والتفاتات إلى الوراء، مطأطئين الرؤوس حتى غاب المشهد من خلفنا ونحن ننزل إلى المجهول من خلال الانحدار المؤدي إلى السور الجنوبي للخروج من البلدة القديمة عبر باب المغاربة، ورافقتنا في تلك الأمتار القليلة التي لا تزيد على المئة، عيون الجنود المنتشرين في كل مكان، وآليات عسكرية اصطفت على طرفَي الطريق، وبدا لي أنه ليس لها نهاية.

لم تغب الجرافات عن المشهد بعد ذلك اليوم، فقد راقبتها وهي تزيل الحجارة التي أغلقت ما بين سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٧ بوابات الخليل والجديد والنبي داود؛ راقبتها بتمعن وهي تزيل الأبنية العربية التي كانت منتشرة خارج باب الخليل حتى مقبرة ماميلا من جهة، وشارع يافا من جهة أُخرى، وكانت أغلبيتها تقع في المنطقة الحرام. راقبتها وهي تزيل عشرات المباني في منطقة المصرارة؛ راقبتها وهي تفرض توحيداً قهرياً لشطرَي المدينة. بقيت الجرافات ولا تزال شاخصة في حياتي، لكنها ارتبطت وما زالت بالمشهد الأول، مشهد تدمير حارة المغاربة، ولم يعد في ذهني استعمال للجرافة إلاّ للدمار.

في أيلول/سبتمبر من العام نفسه، وبعد أن اكتملت العائلة من جديد، التحقت بمدرستي العمرية، وشهدتُ تغييرات كثيرة، إذ وعلى بالرغم من أن طريقي إلى المدرسة وإلى دكان والدي لم يتغير، فإنه أصبح فوق أنقاض حارة المغاربة عبر الساحة الضخمة، أمّا الطريق المؤدي إلى الحرم فلم يعد يلتف بين أزقة الحارة، وإنما أصبح مجرد تلة ترابية مكونة من بقايا أبنية حارة المغاربة، كما أن الدخول إلى الحرم من باب المغاربة أصبح يعني المرور عبر نقطة الشرطة العسكرية الإسرائيلية التي سيطرت على هذا الباب وانتزعت مفتاحه من الأوقاف الإسلامية. ولم تعد ساحات الحرم محافظة على هدوئها الصباحي المعهود، بل باتت مكتظة بالزوار من الإسرائيليين المحدقين بكل شيء، وأصبح "عادياً" مشهد زوار الحرم من حملة الأسلحة الأوتوماتيكية ممّن يلبسون الزي العسكري، أو حتى من "المدنيين" الذين يتمنطقون بأسلحتهم ويتباهون بها أمام أنظارنا.

لم يعد في الحقيقة أي شيء كما كان، ولم تعد المدينة مدينة، ولا القدس قدساً، ولم يعد هدوئي وتأملاتي كما هي، وإنما أصبحت دائماً على عجلة من أمري، أركض في كل اتجاه من دون سبب ولا حاجة؛ أهرب من نفسي، وأهرب من أن تلتقي عيناي بعينَي إسرائيلي، وأهرب من استذكار حارة المغاربة، حتى إن سكان القبور المملوكية في طريق باب السلسلة لم يعودوا يستحوذون على فاتحتي، بل أصبحت أرمقهم بنظرة سريعة لا تحتوي حتى على اعتذار.

وكانت التغيرات في المدرسة كبيرة أيضاً، إذ لم يعد إلى المدرسة معظم المدرسين القدامى الذي امتنعوا من التدريس في ظل الاحتلال، في مدارس تسيطر عليها سلطة الاحتلال الإسرائيلية، وحل محلهم كثير من المدرسين الشباب، إذ جرى توظيف كل مَن يحمل شهادة الثانوية العامة، حتى إن

التشدد في هذا الشرط لم يتكلل بالنجاح دائماً. ولم يعد إلى صفي نصف الطلاب تقريباً، فمنهم مَن ترك المدينة إلى الأردن، ومنهم مَن ترك المدرسة كي يلتحق بسوق العمل، ومنهم مَن لم أعرف مصيره قط.

لقد قرر الاحتلال التظاهر كأن الحياة عادية، وبأن الأمور في القدس تسير على خير وجه، وأن سكان القدس من العرب تقبّلوا الوضع الجديد، وأن لا تغير درامياً على الحياة، ولذلك لا بد من فتح المدارس في موعدها في أيلول/سبتمبر، معلناً أن الإجازة الصيفية العادية التي تمتد من حزيران/يونيو حتى أيلول/سبتمبر انتهت، وأن في إمكان الجميع مزاولة حياتهم كالمعتاد.

أمّا التغير الثاني في المدرسة فكان في المنهاج، إذ فرض الاحتلال منهاجه المدرسي، وهو المنهاج نفسه الذي كان مفروضاً على فلسطينيي الأرض المحتلة منذ سنة ١٩٤٨. ومن الأمور المثيرة في ذلك المنهاج هو اختفاء صورة الملك حسين بن طلال التي كانت تستهل جميع الكتب المدرسية قبل ذلك، كما اختفى اسم المملكة والتاج الملكي من غلاف الكتب. ومن أكثر الأمور إثارة كان ظهور مدرّسة يهودية تلبس تنورة قصيرة كي تعلّمنا اللغة العبرية، وما زلت أذكر اسمها "مريم". أمّا الأمر الآخر فكان كتاباً يحمل اسم "مدنيات إسرائيل"، وأذكر أن مربي الصف قال لنا: "اعتبروا أنكم لم تستلموه، ولا داعي لإحضاره إلى المدرسة." لم تعد العمرية عمرية، تماماً، مثلها مثل القدس.

لم يطل هذا الأمر كثيراً، فالأساتذة، ومن خلفهم أولياء الأمور، رفضوا الاستمرار في تدريس منهاج الاحتلال، وأصروا على أننا جزء من المنهاج الأردني، وأن الطلاب بعد إنهائهم الثانوية العامة سيتوجهون إلى الجامعات العربية، وهذه الجامعات لا تعترف إلاّ بامتحانات الثانوية العامة الأردنية. لم أنتظر تلك التغيرات، وإنما قررت أخذ زمام المبادرة، فاستعدت المنهاج الأردني بالتدريج، لكن ذلك جرى على مراحل استمرت أعواماً طويلة. لقد بقيت طالباً في المدارس التابعة للاحتلال حتى أنهيت الثاني الإعدادي (الصف الثامن)، وأمضيت عامَين في مدرسة عبد الله بن الحسين الكائنة في حي الشيخ جراح على بعد أربعة كيلومترات شمالي البلدة القديمة، لأن المدرسة العمرية تنتهي عند الصف السادس، وبالتالي أصبحت أسير على قدمَيّ من سلوان عبر البلدة القديمة كلها حتى الخروج من باب العمود، ثم أستكمل المسير عبر شارع نابلس مروراً بالقنصلية الأميركية وجمعية الشبان المسيحية، فمدرسة المطران، مروراً بـ "الأميركان كولوني" وزاوية الشيخ جراح، وبعد الوصول إلى أخفض نقطة في تلك المنطقة، كنت أصعد بشكل حاد من أمام بيوت آل غوشة وجار الله وصولاً إلى مدرسة عبد الله بن الحسين، وبعد الظهر كنت آخذ الطريق نفسه، لكن مروراً بدكان والدي في طريق باب السلسلة عبر سوق خان الزيت وسوق العطارين لحمل مزيد من الأثقال فوق حقيبتي المدرسية الثقيلة.

وجاء التغيير الإضافي على حياتي المدرسية، بعد أن بدأ الإحساس الفطري بالوطنية يتشكل في نفسي الصغيرة، فقد سمعت نداء لم أعد أذكر مَن أطلقه وكيف وصل إلى مسامعي، وذلك في سنة ١٩٧٠، بأن مباني المعهد العربي الكويتي في أبو ديس عرضة للمصادرة ولتحويلها إلى معسكر للجيش الإسرائيلي، وأنه سيتم تحويلها إلى مدرسة لإنقاذها، فتركت مدرسة عبد الله بن الحسين وذهبت وسجلت اسمي في المدرسة الجديدة، حتى من دون مشاورة والدي، وشعرت حينها بأنني أقوم بعمل بطولي. وقد اكتشفت أن مباني المدرسة الجديدة الضخمة ذات الساحات الواسعة غير مجهزة لاستقبال الطلاب بعد، فعملنا مع المدرسين والموظفين والمتطوعين على إزالة الركام من داخل المباني وتنظيفها، واستمر عملنا عدة أيام حتى استطعنا وضع المقاعد المدرسية وتوفير الحد الأدنى من الشروط لبدء العام الدراسي.

لقد أدى انضمامي إلى المعهد العربي في أبو ديس ليس فقط إلى تغير إضافي بعلاقتي بالمكان، بل إلى اكتشافي أحاسيسي الوطنية أيضاً، وكذلك اكتشاف الحركة الوطنية التي انضممت إليها في العام نفسه، وكان عمري لم يتجاوز الرابعة عشرة. وكان أشد ما أثّر فيّ في تلك المدرسة هو مدرس اللغة العربية الأديب محمود شقير، الذي ساهم إلى حد كبير في تشكيل مستقبلي، ولا أعرف إن كان يعلم ذلك، لكن كلماته وتوجيهاته الوطنية فعلت فعلها في نفسي. ولاعتقادي بأنني طالب مميز، قررت الالتحاق بأهم المدارس في حينها، وهي المدرسة الهاشمية في البيرة التي تضم الصفين الثاني الثانوي والثالث الثانوي العلمي فقط، وقد احتوت على خمس شعب من كل صف، وهي الوحيدة في الضفة الغربية المنظمة على هذا المنوال.

على أي حال، لم يمضِ على بلوغي السادسة عشرة سوى أشهر معدودات، أي بعد التحاقي بالهاشمية بستة أشهر، وكنت في الصف الثاني الثانوي (الصف الحادي عشر)، حتى وجدت نفسي معتقلاً، وهكذا عرفت مَن دمر حارة المغاربة من وجوه أُخرى.

القراءة على الأسوار وإلقاء الحجارة من خلف الجدران

من ذكرياتي الأُخرى التي سبقت الاحتلال، أنني تعرفت، بل أدمنت، ولا أعرف السبب، على القراءة بسن مبكرة؛ لكن لأن القدس لم تكن تنعم بمكتبات عامة متاحة أمامي على الأقل، فقد اهتديت في سن الثامنة أو التاسعة إلى مصدرين للكتب والمجلات، كلاهما يقع في باب العمود. الأول كان يسمى "بسطة شبانة"، وصاحبها من عائلة احترف كثير من أبنائها بيع الجرائد اليومية والمجلات، وقد اتخذ زاوية باب العمود من الخارج مكاناً لبسط بضاعته، وكان يتعاقد معي على شكلين: الأول أن أستعير المجلات بنصف قرش وأفترش الأرض بجانب بسطته، أي في مبنى باب العمود، حتى أنتهي منها وأعيدها له بشرط عدم توسيخها أو تمزيق أي من أوراقها أو "جعلكتها"، وكانت جلستي تستمر ساعة أو عدة ساعات إلى أن ينتابني التعب أو العطش والجوع؛ الخيار الثاني كان يكلف قرشاً كاملاً، ويبيح لي استعارة المجلة الكبيرة والدسمة مثل "مجلة العربي" ليوم كامل، لأنني لا أستطيع إنهائها في مفترش باب العمود، وبالتالي كنت أصطحبها وبكل فخر واعتزاز إلى البيت، على أن أعيدها في اليوم التالي.

أمّا المصدر الثاني لمناهل "ثقافتي"، فكان لا يبعد كثيراً عن الأول، ويقع داخل باب العمود أمام مسجد الشيخ لولو (الزاوية اللؤلؤية)، وكان يسمّى "المناضل الجريح"، وأحسب أن صاحبه كان ممّن قاتلوا في صفوف الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني. وكان له يد بأصبعين اصطناعيين بعد أن فقد ذراعه كلها في الحرب، فركّب ذراعاً اصطناعية لم أشاهدها قط، لكنني كنت أشاهد الأصبعين الصناعيين المغلفين بأنابيب مطاطية سوداء يخرجان من كُمّ قميصه، ومحله كان عبارة عن كشك (صندوق) معدني، يبيع فيه الكتب المستعملة فقط، وكان يعيرني الكتاب الذي أختار بقرش لمدة ثلاثة أيام. وفي هذه المرحلة بدأت رحلتي مع نجيب محفوظ، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وإحسان عبد القدوس وآخرين. وفي الحقيقة فإن علاقتي بمزوّدي ثقافتي استمرت بعد الاحتلال بأنماط متنوعة، حتى بعد أن افتُتحت مكتبة القدس العامة، وأصبحتُ من أنشط زبائنها، فشبانة ما زال يفترش باب العمود حتى اليوم، في حين لم أعرف مصير المناضل الجريح، ولا أذكر كيف اختفى كشكه.

أمّا مكاني المفضل للقراءة، فبالتأكيد لم يكن بيتنا المكتظ في البلدة القديمة، وإنما كان سور

القدس الجنوبي، وكان لا يبعد كثيراً عن بيتنا في حارة الشرف. وسور المدينة في هذه المنطقة لا يرتفع عن مستوى الأرض من داخل المدينة إلاّ بضع درجات في المنطقة الموازية لحارة اليهود. فقد كنت أجلس بين أسنان السور حيث أركن ظهري إلى إحدى مسنناته، وأمدّ قدمَيّ، إن وصلتا أصلاً، حتى حدود المسننة التالية. أمّا أسفل السور من خارج المدينة، فكان ارتفاعه يزيد على عشرة أمتار، وكان المنظر خلاباً بقدر ما كان مخيفاً، إذ كانت تنبسط أمامي مساحات شاسعة من سلوان ورأس العمود وجبل الزيتون وجبل المكبّر وحتى السواحرة، وأجمل ما كنت أرى في الأفق البعيد جبل الفريديس المسمى هيروديون، أو قصر هيرودوس، الذي يقع إلى الشرق من مدينة بيت ساحور، حيث كان يظهر مثل فوهة البركان، ولم تُكتب لي زيارته إلاّ بعد ذلك بعقود.

كنت أصل إلى نقطتي المفضلة ولا أبرحها حتى أنتهي من قراءة ما أحضرت معي. وكانت جلستي هذه تستمر ساعات، وقد أُحضر إلى جانب الكتاب ساندويشاً صغيراً ممّا تيسر في البيت من لبنة أو مربى أو دبس العنب. ولا أذكر يوماً أنني تأخرت عن إعادة كتاب، أو أنني أعدت كتاباً لم أقرأه، ولا أدّعي بأني كنت أفهم كل ما أقرأ، لكنني كنت مصراً على قراءة كل ما كان يقع بين يدَي حتى نهايته، على ألاّ تزيد تكلفته على قرش، لأن القرش على الأغلب شكّل مصروفي ليومين. ولم أتردد في أن أخفي قرشاً أحياناً لأضعه في يدي المناضل الجريح، وقد تمتد يدي إلى جارور دكان والدي لاستلال قرش من دون معرفته تحقيقاً للغرض نفسه، الأمر الذي كان يكلفني إحساساً بالذنب لأيام، لا ينتهي إلاّ بإقناع النفس بشرعية ما اقترفته، وبأنني لن أدخل النار بسبب هفوة صغيرة.

وبعد الانتقال إلى البيت الجديد، تغير مكان "مكتبي"، وانتقل إلى حرش صغير موجود على السفح الشرقي لجبل النبي داود الذي لا يبعد كثيراً عن بيتنا الجديد، وهناك تعرفت إلى عدد من جنود الجيش العربي الأردني، وكانوا كلهم من شرق الأردن، وخصوصاً من منطقة الكرك، وكانوا يحبون وفادتي إليهم، فيكرمونني بالشوكولاتة، وقد يكون السبب أنني أذكّرهم بأطفالهم أو لأنهم استكبروا فيّ تركيزي على القراءة، وأنا استكبرت فيهم كرمهم ولطفهم وبساطتهم التي لن أنساها. وكان بين الأشجار مجموعة من الخنادق والممرات التي حفرها الجيش الأردني تحضيراً لمعركة القدس، ودفاعاً عن النفس.

وفي الحقيقة، فإنه عند اندلاع الحرب وسماعنا أصوات الانفجارات في معسكر أولئك الجنود، شرع مصيرهم يقضّ مضجعي، واشتد قلقي وأنا في بيت جدي في أثناء الحرب، ولهذا ما إن سنحت لي الفرصة بعد عودتنا من البلدة القديمة، حتى تسللت خفية إلى جبل النبي داود، وبحثت بين الخنادق المحترقة حيث وجدت خمس جثث منتفخة تهيّأ لي أنها لأصدقائي الجنود، بعد مرور أيام على استشهادهم، فجررتهم جثة بعد الأُخرى ووضعتهم معاً في أحد الخنادق وأهلت التراب وبقايا الشجر عليهم، من دون أن أتمعن في أي منهم، ويبدو أنهم استشهدوا جرّاء غارة جوية عليهم باستعمال قنابل النابالم، إذ يبدو أن حريقاً التهم مواقعهم. قرأت الفاتحة على أرواحهم كما اعتدت في طريق باب السلسلة، وغادرت المكان وقد جف حلقي، وطردت صورتهم من ذاكرتي كلياً، وبقيت أذكرهم على حالهم التي تركتهم عليها قبل الحرب. ولم أعرف مصير الجنود الآخرين، إن كانوا قد لقوا المصير نفسه، أو إن كان آخرون قاموا بدفنهم كما فعلت أنا، أو أنهم نجوا من هذا المصير وانتقلوا إلى الأردن. لا أذكر أسماء ولا عناوين، وأعتقد أنني أذكر وجوههم فقط، لكنني لم أعد متأكداً من ذلك أيضاً، فقد اختلط الحابل بالنابل، كما أن الحروق غيرت المعالم، غير أني ما زلت لا أريد تذكّر وجوههم، وقد تُركوا وحدهم يموتون بعيدين عن عائلاتهم، ودُفنوا بطريقة لا تليق بمدافعين عن القدس. أشعر بالندم الدائم لعدم تفتيشي أغراضهم لأحفظ ذكراهم لي ولأهلهم، لكن هول صدمة مشاهدتهم على تلك

الشاكلة، وصغر سني، حالا دون القيام بأي شيء سوى إكرامهم عبر دفنهم.

لا أعرف ماذا جرى لقبرهم الجماعي الذي لم يحظَ حتى بشاهدة قبر، كما لم يحظَ بفاتحة غير فاتحتي، لكن سلطات الاحتلال قامت لاحقاً بتجريف المنطقة وإنشاء موقف للحافلات في مقابل باب النبي داود من الخارج، بحيث لم أستطع لاحقاً حتى قراءة الفاتحة على قبرهم، لأنني لم أعد أستطيع تشخيص موقعه. لم أرِ هذه القصة حتى لأهلي، ولا أعرف السبب، لكنني أثبتها هنا لأول مرة.

بالنسبة إلى "وعيي" بإسرائيل قبل سنة ١٩٦٧، إن كان من الممكن تسمية ذلك "وعيا"، فجرى بسبب أسئلتي الكثيرة، وتجوالي الذي لا ينتهي بين أزقة البلدة القديمة، فقد تساءلت أكثر من مرة عن سبب إغلاق ثلاثة من أبواب المدينة: باب الخليل، وباب الجديد، وباب النبي داود، وانتشار الجيش الأردني فوق السور الرابط بين هذه الأبواب، والممتد من باب العمود إلى باب المغاربة محتلاً النصف الغربي من السور الشمالي، أي إلى الغرب من باب العمود، والسور الغربي كله، وجزءاً من السور الجنوبي، وهذه مجتمعة تشكل نصف امتداد السور، أو أقل قليلاً. كان منظر هذه البوابات من داخل المدينة بشعاً، إذ سُدت بحجارة غير مهذبة وباستعمال الأسمنت، وبُنيت بشكل عشوائي منفّر وعلى عجل، وذلك داخل البوابات العثمانية البديعة، وكانت هذه البوابات بالنسبة إليّ نهاية العالم الذي يُخفي وراءه ما لا أعرف ولا أفهم. وكان وراء ذلك السور أيضاً بيوت جيراننا في البلدة القديمة، وكان أولاد اللاجئين من جيراننا يقولون لي إن بيتهم خلف باب الخليل، من الجهة الأُخرى. وفي الحقيقة لم يتسنّ لي في طفولتي داخل البلدة القديمة أن أرى بتمعن ما يوجد وراء السور الغربي؛ لا أعرف السبب، لكن ذاكرتي لا تكتنز من هذا المنظر شيئاً.

أمّا خارج الأسوار في حي المصرارة، الكائن مباشرة إلى الشمال من باب العمود، فتدربت على ركوب الدراجة الهوائية، إذ كان "البازيان" يؤجر الدراجات. وفي نهاية الحي كان ثمة سور غير مرتفع لكنه يمنع الرؤيا، وقد انتشر عليه بعض من جنود الجيش العربي الأردني، وكان فيه فتحات صغيرة تشبه كوات ("مزاغل") سور القدس، فكنت أطل من خلالها إلى "عالم الآخر"، وقد شاركت أكثر من مرة مجموعة من الأطفال في مثل سني في إلقاء الحجارة على الجانب الآخر، وذلك على مرأى جنود الجيش العربي الأردني وتشجيعهم، وكان "الآخر" يبادلنا إلقاء الحجارة، واستطعت أكثر من مرة مشاهدة أطفال "الآخر" في أثناء تبادل قذف الحجارة. وفوق ركام حارة المغاربة رأيت الآخر كاملاً لأول مرة منتصراً وراقصاً ومدججاً بالسلاح وموشحاً بالسواد والقبعات. ■